

الزوايا والضبط الاجتماعي في الجزائر، بين الإرث التاريخي وسؤال الراهنية.

- محمد ذرداري
- جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم derdari@yahoo.com

ملخص: لقد ظلت الزاوية بكل تمفصلاتها مصدرا للضبط الاجتماعي في بعده التقليدي، كما لا يمكن فصل دورها عن المشهد الاجتماعي للمجتمع الجزائري، لكن التغير الاجتماعي المستمر وما انجر عنه من انتقال على مستوى البنى والأنساق الاجتماعية أدى إلى حدوث تداخل ومنافسة لمؤسسات أخرى فرضها هذا التغير، مما انعكس على دورها الذي تراجع بفعل عوامل التمدن والتحضّر، حيث تغيرت ولاءات و قناعات الأفراد بما في ذلك الولاء للزاوية ورموزها، نتيجة تراجع البعد القداسي أو القوة القداسية التي أحاطت بالزاوية سواء ما تعلق بشيوخها أو مرّيديها. كما كان للدور السياسي الذي لعبته بعض الزوايا تأثيرا على الوظيفة الضبطية، دون إغفال التراكمات والاجتهادات الدينية ممثلة في الفكر السلفي وكيف انعكس على كيان وصورة الزاوية في المخيال الجمعي للأفراد.

الكلمات المفتاحية: الزاوية، الشيخ، الضبط الاجتماعي، السياسة، التغير الاجتماعي.

Résumé: La Zaouia avec toutes ses articulations a été une source de contrôle social dans sa dimension traditionnelle, son rôle ne peut être séparé de la scène sociale de la société algérienne, Cependant, le changement social continu et le mouvement qui en a résulté au niveau des structures et des systèmes sociaux ont conduit à des chevauchements et à la concurrence d'autres institutions imposées par ce changement. Ce qui a influencé le rôle de la Zaouia à cause des facteurs d'urbanisation, où la loyauté et les convictions des individus, y compris l'allégeance à la Zaouia et ses symboles ont beaucoup changé, et à la suite du déclin de la dimension de sainteté ou du pouvoir sacré qui entourait la Zaouia, que ce soit lié aux maitres ou aux disciples. Le rôle politique joué par certains aspects a également eu un impact sur la fonction disciplinaire du contrôle social, sans négliger les accumulations et les interprétations religieuses représentées dans la pensée salafiste, et comment cela a été reflété sur l'entité et l'image de la Zaouia dans l'imaginaire collectif des individus.

Mots-clés : La Zaouia, Maitre, Contrôle social, politique, changement social.

تمهيد:

إن البحث في كل ما هو تقليدي يحيلنا إلى مقارنة وسائل الضبط الاجتماعي خاصة التقليدية منها على اعتبار أن الوظيفة الضبطية تعتبر جوهر الحياة التقليدية ومبدأ أساسي لاستمراريتها، رغم عامل التغير الذي مس المجتمع التقليدي، والذي انعكس على هذه المؤسسات، مما أدى إلى سيادة مؤسسات في مقابل تراجع دور ووظيفة أخرى، واختفاء مؤسسات أخرى باختفاء أدوارها، كما ظلت الوظيفة الضبطية ملازمة للموضوع الأم المتمثل في القبيلة، هذا المصطلح الذي يرمز لأكثر من دلالة على المستوى الفكري التنظيري وكذا على مستوى التصوري الاجتماعي وما يكونه هذا المصطلح في مخيال الأفراد.

ويعرف "عبد المجيد مزيان" القبيلة بأنها "الزعة إلى تغليب الأنظمة والقيم المنبثقة من ذلك النظام العتيق الآخذ تماسكه من الشعور عند مجموعة من الناس بالإنتماء إلى نسب واحد وعرف واحد ومصالح اقتصادية واحدة والكل مشخص في وحدة اجتماعية ضيقة هي كتلة يذوب فيها الفرد ولا يتعدى ألقها الإقليم الضيق الذي يمتاز التعايش فيه بالقرابة والعداء دوماً على المصالح والنسب⁽¹⁾، أما في قاموس علم الاجتماع فتعرف القبيلة على أنها "نسق في التنظيم الاجتماعي يتضمن عدة جماعات محلية، مثل القرى والبدنات والعشائر، وتقطن القبيلة عادة إقليماً معيناً ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة يستند إلى مجموعة من العواطف الأولية"⁽²⁾، فموضوع الزاوية كبنية تقليدية لا يمكن بأي حال من الأحوال عزله عن القبيلة وما يتعلق بها كتنظيم اجتماعي.

1-الزاوية والوظيفة الضبطية:

إن الوظيفة الضبطية التي هي محور مهم من محاور الزاوية، تتم بتضافر كل مؤسسات المجتمع التقليدي وبمشاركة كل التكوينات الاجتماعية، حيث تعتبر الزوايا مؤسسة اجتماعية كانت ولا زالت تلعب دوراً اجتماعياً مختلف عبر المراحل التاريخية التي عرفها المجتمع الجزائري، الذي اعتبرت الزوايا ملمحاً أساسياً منه وفي تكوينه بفضل وظائفها المختلفة التي تراوحت بين الاجتماعي التضامني وبين التربوي، وكذا دورها التوعوي الديني، وقبل الحديث عن واقع هذه المؤسسة التي اعتبرناها مؤسسة اجتماعية ذات أبعاد ضبطية، نحاول الكشف عن ماهية هذا المصطلح كمفهوم وكممارسة، لنتطرق فيما بعد إلى واقع هذه الممارسة اليوم، في ظل معطى التمدن وما فرضه من مؤسسات وأنماط حديثة.

فقد تعرضت الكثير من الأطر النظرية لمفهوم الزوايا بالتحليل والنقاش، كما تعرض تبعاً لذلك دورها ووظيفتها في المجتمع، فمن خلال التتبع التاريخي تبرز الزاوية في خضم المناقشات الاجتماعية والتربوية، وخاصة الدينية، لكون الزاوية معطى ديني بالدرجة الأولى، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالطرق الصوفية التي عرفها شمال إفريقيا خاصة المغرب والجزائر وكذا تونس، حيث لعبت الزاوية دوراً حاسماً في التاريخ الاجتماعي والثقافي لهذه الأقطار.

تتميز الزوايا بتشعب المداخل التي حاولت تفسير دورها وأساس تشكلها، هذا الأخير الذي تراوح بين التأسيس الديني التوعوي والتأسيس التربوي، إضافة إلى التأسيس التضامني، ولعل كل هذه التأسيسات إن صح التعبير، تعتبر رساميل أساسية على إثرها تتضح معالم الزاوية في مفهومها الشمولي المركب، إضافة إلى ذلك، فإن الزاوية كمؤسسة اجتماعية تتمتع بهيكلية تنظيمية ساهمت في استمراريتها وأداء وظيفتها، وبالتالي إعادة إنتاجها عبر المراحل التاريخية وحتى اللحظة الراهنة، حيث يذكر نور الدين الزاهي بعض مستويات الزاوية، بداية بالمستوى المذهبي أو الطريقة، وكذا المستوى التنظيمي أو الطائفة، إضافة للمستوى الميداني أو الزاوية ويضيف إلى ذلك المستويين العمودي والأفقي، فالأول يكون فيه ضرورة وجود الشيخ من ضرورة وجود منتج للأوراد ومحافظ عليها، فهو المركز الموحد للمريدين وإليه تعود عملية تسيير وضبط سلوكياتهم، أما الثاني فيمثل العلاقات الأفقية السائدة بين المريدين، تتميز بانتمائهم لطريقة واحدة⁽³⁾، مما يدل أنها مؤسسة تتسم بهيكلية محكمة تساهم في تفعيل دورها ووظيفتها.

ويأتي على رأس الزاوية وهيكلتها التنظيمية "الشيخ" وما يترتب عنه من قيم، وبالتالي من ممارسات اجتماعية اتجاهاه، الأمر يستند إلى الوقائع والحقائق التاريخية والاجتماعية التي أظهرت محورية شيخ القبيلة في التنظيم الاجتماعي العام والزاوية بشكل خاص، وكذا رمزيته التي لا تتوفر لغيره، لكن إذا أتبعنا هذا الواقع، يجب أن نقوم بوضع المفاهيم في سياقاتها الزمانية والمكانية، فمفهوم شيخ القبيلة من الناحية الإجرائية لم يبق تداوله بنفس الأهمية التي يحضى بها في القبيلة بفهومها الحقيقي والتقليدي، بل تحول هذا المفهوم ليصبح مع مرور الوقت يعنى به إما: "مقدم العرش" أو "مقدم الزاوية" أو "مقدم القبة" أو "كبير العرش" و"شيخ الزاوية"، كلها مفاهيم تشترك في أنها ذات أصول اجتماعية تقليدية، كانت القبيلة فضاء لظهورها، كما أنها تعابير ومفاهيم تجعل من هذا الشخص معروفا بالنسبة لأفراد القبيلة، مع اختلاف في أدوار كل منهم، لكنها في نفس الوقت تعبر عن نوع من استمرارية الأدوار التقليدية التي كانت منوطة بشيخ القبيلة في السابق، مع تسجيل تراجع لقوة مفهوم شيخ القبيلة، هذا التراجع الذي امتد للقوة الاجتماعية والوجدانية وكذا الروحية التي كان يحضى بها هذا الشيخ.

فالوظيفة الضبطية من خلال ما تقدم ارتبطت بشكل أساسي بالزاوية ككيان اجتماعي تقليدي نافذ، كما استمدت قوتها ونفوذها وكذا سيطرتها من خلال هيكلتها التي يعتبر شيخها (الزاوية) على رأس تنظيمها، الذي لعبت الزاوية دورا مهما في إبرازه من خلال أداء وظيفتها الضبطية وسيطرتها على مفاصل القبيلة، على اعتبار أن الزاوية تعتبر رأس التنظيم الاجتماعي والديني لهيكلية القبيلة، وما يتفرع عن هذين التنظيمين من تنظيمات أخرى تربوية سياسية اقتصادية... الخ، دون أن تذوب الزاوية في الأشكال التقليدية التي يمكن أن تضعف قوتها الضبطية، كشيخ القبيلة أو كبار العرش أو القبيلة، فهذه الأشكال ظلت لوقت طويل أدوات في يد الزاوية لبطس نفوذها وسلطتها بفضل رساميلها الرمزية المتمثلة أساسا في "البركة"، "الكرامات"، "القداسة الجاه، الولاء، وأكثر من

ذلك طابع الاستحواذ والتأثير على وحدات القبيلة من خلال الأتباع والمريدين الذين يعتبرون المجال البشري المتحرك في الزمان والمكان داخل القبيلة وخارجها.

2- الزوايا بين التاريخي والاجتماعي:

لطالما كان للزاوية علاقة وطيدة بينها وبين الدين، واعتبرت بمثابة الوعاء الذي من خلاله تُمارس تمثلات الدين من طرف الأفراد، ولطالما اعتبر الدين حاجة ملحة لهؤلاء الأفراد، من هنا كان للزاوية أهمية هي من أهمية الدين والأخلاق المثالية عبر التاريخ الاجتماعي للتجمعات البشرية أو كما عبر عنه "إميل دوركايم" من خلال مؤلفه الشهير "الأشكال الأولية للحياة الدينية"، حيث يتحدث عن العلاقة بين المجتمع والدين والأخلاق المثالية "إن المجتمع قبل كل شيء مجموعة من الأفكار، المعتقدات، المشاعر من كل نوع والتي تتحقق بواسطة الأفراد، وفي المحل الأول من هذه الأفكار توجد فكرة الأخلاق المثالية التي هي السبب الرئيس لوجود المجتمع"، فاستنادا لهذا الطرح يمكن القول أن الزاوية وإن تباينت أدوارها وتراجعت تاريخيا فهي في المحصلة تبقى معطى اجتماعي من إنتاج الأفراد⁽⁴⁾. ويمكن الحديث عن بعض أدوار الزاوية من خلال علاقة التاريخي بالاجتماعي كمايلي:

2- 1 الدور التاريخي:

يعتبر الدور التاريخي للزوايا مهما على الرغم من أن الأحداث التاريخية تحمل في طياتها أبعادا مختلفة سياسية ثقافية تربوية وكذا اجتماعية، لكن ببقية البعد التاريخي مهما، لكون الزاوية كانت حاضرة في صناعة وتشكيل وبلورة الكثير من الأحداث التاريخية التي عرفها المجتمع المغربي على وجه العموم، ولا يمكن التطرق إلى تاريخ هذه الأقطار بدون استحضار البنية التقليدية للمجتمع والذي تعتبر الزاوية جزءا هاما منه، فلا يمكن فصل الظاهرة الاجتماعية من صياغاتها التاريخية والعكس صحيح، نظرا لحجم الدور البارز الذي لعبته الزاوية.

كما أن دورها في الجزائر كان أكثر من حاسم في أهم مراحل التطور الاجتماعي صعوبة إبان المرحلة الاستعمارية التي لا يختلف فيها إثنان وحتى المتشائمين حول محورية دورها، يجمعون على الدور الريادي الذي لعبته الزاوية إبان المرحلة الاستعمارية

فوجودها كان أكثر من ضرورة في فترات تاريخية حاسمة في تاريخ الجزائر، خاصة المرحلة الاستعمارية، "فقد كانت الزوايا إحدى أهم النقاط التي انشغل بها الاستعمار الفرنسي نتيجة الدور الوطني الذي كانت هذه المؤسسات تلعبه قبل وخلال الثورة التحريرية، فعلاوة على كونها تلقن تعاليم الدين الإسلامي، فإن أئمتها آنذاك كانوا حلقة مهمة في ثورتهم ضد الاستعمار، وذلك بإعداد الطلبة لخدمة القضية الوطنية⁽⁵⁾."

لا يختلف الكثير من المهتمين بتاريخ و موضوع الزوايا على جوهرية الدور التاريخي لمؤسسة الزوايا في المجتمع، خاصة المجتمع التقليدي، فيمكن اعتبارها أساس التنظيم القبلي، بل تتجاوز حدود القبيلة وتاريخها ويصبح الانتماء للزاوية مقدما على الانتماء للقبيلة، حيث يقول عبد الله العروي في هذا الصدد، "في حالات معينة

يقدم المرء انتماءه لزاوية على أي انتماء آخر، فيقول أنا تيجاني أو وزاني، بل يحمل ذلك إسما شخصيا قبل أن يقول أنا ريفي أو فاسي أو مغربي... إلى حد أن تاريخ البلد كاد أن يتحول في القرون الأخيرة إلى تاريخ زوايا بعد أن كان في فترة سابقة تاريخ قبائل⁽⁶⁾، لما تحمله هذه المؤسسة من آليات اجتماعية ثقافية واقتصادية وحتى سياسية، ويتفقون كذلك على بقائها كمعطى ثقافي واجتماعي وسمة بارزة من سمات المجتمعات العربية خاصة المغاربية منها، ولا أدل على ذلك من الكم الهائل من الزوايا التي تشعبت وتعددت، مما زاد من صعوبة حصرها، نتيجة الانتشار الواسع لها عبر المجتمعات من جهة، ودرجة الإقبال عليها من جهة أخرى، إضافة إلى إنتشار مريديها الذين عبروا كل الحدود الجغرافية للأقطار الأصلية لتأسيس الزاوية.

2-2 الدور الاجتماعي والتربوي:

ففي دراستها حول أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها دراسة انثروبولوجية في مصر والمغرب، أبرزت الباحثة: "منال عبد المنعم السيد جاد الله" دور الزوايا في عملية الضبط الاجتماعي، فقد كان للشيخ دور فعال في الفصل بين الناس في حالات النزاع والخلاف، وامتدت جهود الشيخ لتشمل المجتمع ككل، ومن ثم يتضح أثر الطريقة الذي لا يمكن إنكاره على الحياة الاجتماعية التي هي بمثابة دعوة لتدعيم المبادئ والقيم الدينية، حيث كانت الزاوية تأوي العجزة والفقراء والطلبة، فيجدون الطعام والفرش، وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهر الاجتماعية⁽⁷⁾.

لا يمكن إنكار الدور التربوي الذي لعبته الزاوية في فترات تاريخية هامة في تاريخ الجزائر، خاصة في المرحلة الإستعمارية، فقد أخذت على عاتقها هذه المهمة في وقت فراغ الساحة التربوية والتوعوية من جهود تصب في هذا المنحى، ويعود لها الفضل في الحفاظ على كثير من الثوابت الوطنية والقومية للمجتمع وذلك بشهادة الكثير من المهتمين والمشتغلين بحقل الانثروبولوجيا والزاوية على وجه التحديد، ويعود ذلك إلى البنية التقليدية السائدة آنذاك، بالإضافة إلى ذاتية المجتمع التقليدي في تحصيل ما يتعلق به من حاجات مختلفة تربوية اقتصادية سياسية... الخ، كلها أوضاع شجعت على مثل هذه المؤسسات التقليدية التي لا تعتبر وسائل تربوية بالمفهوم المعاصر فقط، بقدر ما كانت كذلك تمثل انتماء وجدانيا وروحيا وملجأ للاستقرار والتوازن النفسي بطريقة لاشعورية، نظرا لقرنها من هموم الفرد في هذا المجتمع التقليدي، والذي توصف حياته بالصعوبة، مما جعل الزاوية تتبوأ مكانة قداسية في التفكير والسلوك الاجتماعي للأفراد، أمر انعكس على الجسد الاجتماعي بأكمله من حيث بروز مظاهر المحافظة والوعي بمخاطر وانعكاسات التهديد الاستعماري.

حيث يتحدث "توفيق المدني" في كتابه "الجزائر عن الطرق الصوفية ودورها التاريخي العظيم فقال: لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا آثار تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى المكابر، تلك هي أنها استطاعت أن تحفظ الاسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا و الرباطات يُرجعون فيها الظالمين إلى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود

العظيمة التي بذلوها والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب، لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين⁽⁸⁾.

كما امتد تأثير الزاوية إلى ما بعد الاستقلال كسمة لاستمرار التقليدي في مقابل جهود الحداثة والتطوير التي باشرت جزائر ما بعد الاستعمار، هذه الجهود التي يبدو أنها لم تلغي البنيات التقليدية من مشهد التطوير والتنمية، حيث برزت المؤسسات التقليدية، المساجد والزوايا عبر "محاضرها" جمع محاضرة*، في لعب دور مفصلي في نقل المعرفة الدينية بتحفيظ القرآن والحديث، مما مكنها من القيام بدور رئيس بالمساهمة في تكوين الإطارات المالكة للمعرفة الدينية، والواقع يؤكد ذلك، حيث أن 95 بالمائة من الأئمة والخطباء في مدينة أولاد جلال بولاية بسكرة كمثل لم يدخلوا المدرسة الرسمية قط رغم أنهم جميعا من مواليد الخمسينات من القرن العشرين، أما الباقي فقد كانوا حافظين للقرآن بالموازية مع مداومتهم على الدراسة في المدرسة الرسمية**.

كما تبرز أدورا الزاوية الاجتماعية مع الطريقة العلوية من خلال الدور الفعال الذي كانت تقوم به في تربية الناشئة، فقد بنت مراكز علمية ومنابر يتواصل من خلالها العلماء بالطبقات الاجتماعية، والفضل في هذا يعود إلى شيوخ الطريقة الذين تبنا المنهج العلمي كسبيل للتربية والاندماج في الحق الاجتماعي والثقافي، كما اهتم شيوخ الطريقة بتربية أطفال الأحياء الشعبية بمدينة مستغانم، ونشر الإسلام والإيحاء في المجتمع من أجل محاربة العنف والإجرام بكل أنواعه، لذلك وجبت التربية منذ الصغر لتنشئة الأجيال و تعليم الأطفال منذ الصغر⁽⁹⁾.

3- عناصر القداسة في الزاوية:

لقد ارتبطت الزاوية على مر وجودها التاريخي بالوظيفة الدينية وما ينجم عن هذه الوظيفة من أنساق اجتماعية ثقافية وحتى اقتصادية، كما ساهم البعد القداسي في إحاطة هذه الوظائف بالإلزام والرقابة من طرف الأفراد حين ممارستهم الاجتماعية، "على اعتبار أن الفكر العربي بصفة عامة كغيره من فكر شعوب أخرى أضفى صفة القداسة على التكون القدسي للعالم والكون والإنسان وركن على محاور قدسية متعددة لا تتجاوز منع أشياء غيرها منزوعة عنها صفة القداسة"⁽¹⁰⁾.

وتتخذ القداسة مستويات متعددة متعلقة كلها بالزاوية، حيث يمتد كل ما هو قدسي بداية بتأسيس الزاوية التي تختلف أسباب تأسيسها، إضافة إلى القداسة التي يحاط بها الشيخ المؤسس أو أحفاده الذين سيثقلون مشيخة الزاوية بعد وفاة الأب الشيخ، حيث يجمع معظم الباحثين في مجال الأنثروبولوجيا الدينية القديما منهم والمحدثون على أن المقدس (Le sacré) الذي يشكل جوهر الإعتقاد الديني هو في تظاهراته الواقعية مجال وزمان وإنسان⁽¹¹⁾، كما تستمر دورة القداسة إلى المريدين وعلاقتهم بالشيخ، حيث تترجم القداسة على شكل انتماء وولاء تام للزاوية وشيخها، كل هذا يكون تصورا قداسيا يرتبط بأفراد المجتمع، خاصة منهم المنتمين

للزاوية سواء كانوا مريدين أو أفراد عاديين، لكن هذه القداسة تعرضت هي الأخرى كما تعرضت الزاوية لعدد المراحل التي كانت في كل مرحلة تحدد حجم القدسية التي ارتبطت دوما بالزاوية، بل أن القداسة هي التي تعطي للزاوية كنهها ووجودها وكذلك استمراريتها.

وتستمد الزاوية قوتها القداسية من كينونتها العامة المتمثلة في القبيلة في حد ذاتها والتي تشكل الانتماء الترابي والبشري للزاوية بكل تمفصلاتها هذا من جهة، ومن جهة تستمد الزاوية قداستها من أجزاء تشكلها أو أجزاء نسقها الذي يجعلها كيانا قائما بذاتها داخل القبيلة في علاقة تكاملية وتفاعلية بين الزاوية والقبيلة، ومن بين هذه الأجزاء قداسة المكان الذي يعتبر الجغرافيا التي تأسس عليها هذا الكيان التقليدي، ولطالما كان المكان يشكل رمزية قداسية ارتبطت بقوة الزاوية ومكانتها بين زوايا أخرى، حيث يحضى هذا المكان بتبجيل الأتباع والمريدين ويمتد الأمر إلى أفراد القبيلة، كما تتفاعل عناصر المجال الترابي فيما بينها بين مجال الزاوية والقبيلة وضريح الولي الصالح لتعطي مجتمعة قداسة إضافية للزاوية في ارتباط هذه الأجزاء في مكان واحد، حيث تتعاضد الهيمنة والسلطة على المريدين وأتباع الزاوية حين يرتبط الولي بشيخ الزاوية بالزاوية في حد ذاتها، مما يولد قداسة مضاعفة، تتجذر في الوجدان الجمعي للأفراد من خلال تجذر مواسم الزيارات والارتباط بالولي من خلال طقوس دورية وموسمية تجدد الانتماء والولاء لهذا النسق التقليدي .

حيث تعتبر زيارة الأضرحة ممارسة دينية مترسخة في معظم مجتمعات المغرب العربي على الرغم من الخطاب الفقهي المناوئ لها الذي يرى فيها بدعة تمس جوهر التوحيد الديني للإسلام، وتعد في أحسن الأحوال خرافة لا ترد نيرا ولا تدفع خطرا، بيد أن هذا الخطاب الفقهي الراض لهذه الممارسة لا يجد لها صدى وسط القطاعات الاجتماعية الواسعة، بل حتى داخل النخب⁽¹²⁾

وتظهر امتدادات المجال اليوم في الجزائر للعيان من خلال تشكل أنوية لمدن وتجمعات ريفية (قرى) وحتى تجمعات حضرية (مدن)، من خلال العمق التاريخي لهذه المجالات المرتبطة بالزاوية أو ضريح الشيخ المؤسس، ناهيك عن أسباب التشكل والتكون الأخرى، كما هو الحال في التكون على أساس نبع ماء (عين) أو ما إلى ذلك من العناصر المشكلة لمدن وقرى اليوم.

كما ارتبطت قداسة المكان بقداسة الزمان، هذا الأخير الذي يرتبط بمواسم وأوقات تختلف عن سائر الأزمان، حيث تتجدد الطقوس التقريبية من الولي الصالح في زمن دون غيره من الأزمان، كما تحظى المناسبات الدينية المرتبطة بأزمة معينة بطقوس تعبدية خاصة، على اعتبار قدسيتها وتميزها عن سائر الأزمان، وهنا يبرز الارتباط الوثيق والقوي بين الممارسات الدينية والاجتماعية وكذا الطقوسية التعبدية من خلال هذه المواسم والأزمنة التي لا يمكن فك تلاحمها المكون من الاجتماعي والديني وكذا الطقوسي، كما هو الحال في الاحتفال بعاشوراء وعيد الأضحى وشهر رمضان، المولد النبوي، فهذه المناسبات الموسمية والزمانية، تنتج سلوكا مبطنا ومعياً بالتصور الديني المقدس الذي يفرز ممارسات تتسم بالبعد الاجتماعي، الطقوسي الخرافي والأسطوري في بعض الأحيان.

ويطلق الباحثون في هذا الحقل ومن بينهم "نور الدين الزاهي" مصطلح الموسم للتعبير عن الزمان المقدس، هذا الأخير الذي يظل نتيجة لتركيبة تاريخي بين نوعين من الاحتفال، من جهة يرجع أصل الموسم إلى الطقوس الفلاحية المنظمة حسب دورات وفصول السنة، وذلك لأجل تحديد العلاقة مع الطبيعة، وقد كانت هاته المواسم تقام حول ضريح ولي صالح أو جد قبلي، وضمن فضاءات تعقد مواسم الزفاف والختان، مثلما تنشط التجارة وتبرم المصالحات، لكن من دون أن يتم نسيان الهدف الأكبر للموسم والمتمثل في جني ثمار البركة وتخزينها للموسم المقبل⁽¹³⁾.

وكمثال لهذه المواسم يبرز يوم عاشوراء مجرد يوم مقدس ومبارك يعاد فيه ربط ما تصدع من علاقات بين الأقارب والجيران، وحقل يتم فيه الترويح عن النفس والانتشاء بسماع القرآن الكريم وإنشاد الأمداح النبوية الشريفة... ولا شك أن تداخل مظاهر الحزن بمظاهر الفرح هو أحد التعبيرات المجازية التي يتمظهر عبرها المقدس وفق آليات مهمة لا تكشف عن نفسها دائما بسهولة، بيد أن الشيء الأكيد هنا هو أن هذه الطقوس تظل دائما مرتبطة بالتوترات الملزمة للحياة الاجتماعية والإنسانية بشكل عام⁽¹⁴⁾.

كل ذلك تلعب فيه الزاوية الدور الرائد باعتبارها محمولا دينيا ومحركا للوجدان الجمعي نحو هذه الممارسات الدينية وما تحمله من تعابير طقوسية تباركها الزاوية وتسهر على تنظيمها وتجذرها بقصد استمراريتها وتقديسها منها لهذه الأزمان المقدسة التي تعتبر من صميم وجود الزاوية وكيونتها الدينية والاجتماعية.

4-التأثير السياسي على الزاوية:

مما تجدر الإشارة إليه هو تراجع دور الزاوية على الوجه العام، الذي أصبح مقتصرًا فقط في العلاقات العمودية بين الشيخ والمريدين في ظل فتور وتراجع العلاقة الأفقية وهي الأهم بين الزاوية بكل تمفصلاتها وباقي الأنساق الاجتماعية، وهي العلاقة التي ميزت الزاوية على مر التاريخ، كما أنها كانت، العلاقة الأساسية التي ينتج عنها مختلف أشكال الضبط والرقابة الاجتماعية.

كما أن هذا التراجع في الوظيفة والدور يمكن إرجاعه إلى الدور الذي بات يشكل شكوكا للأفراد خاصة إذا تعلق الأمر بالدور السياسي** الذي باتت تلعبه الزوايا والطرق الصوفية، مما فسره الكثيرون أنه دور يؤكد على اعتبار الزاوية أصبحت تمثل أداة في يد السلطة لتحقيق الهيمنة الاجتماعية بالمنظور السياسي ولعل هذه الاستراتيجية التي انتهجتها الدولة هي جزء من استراتيجية وتوجه عام قديم الطرح، متمثل في الصراع القديم المتجدد بين الدولة والقبيلة كممثل لكل ما هو تقليدي بقصد احتوائه وإذابته تحت مسميات متعددة على غرار الهوية والانتفاء للدولة الوطنية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى اعتُبرت الزوايا شكل من أشكال مقاومة التدين الرسمي الأصولي، فقد عمدت الدولة على تشجيع ما يعرف "التدين الشعبي" أو التقليدي.

كل هذا التوافق بين الزاوية والدولة بخطوات رسمية بقصد إعادة الزاوية للواجهة الاجتماعية والدينية وحتى السياسية، من خلال تقوية موقعها وإعطائها هامشا كبيرا من الحرية بقصد التأثير في البناء الاجتماعي، حيث تم بموجب القانون تأسيس الجمعية الوطنية "الرابطة الرحمانية للزاويا العلمية" التي تأسست بموجب القانون رقم 0019، المؤرخ في 27 فبراير 1990، كذلك تأسيس الإتحاد الوطني للزاويا الجزائرية⁽¹⁵⁾، مما جعل انتماء الأفراد إليها انتماءا بارغماتيا لا انتماءا إيديولوجيا وعقدي وروحي، فباتت بعض الزاويا حلقة وصل بين بعض الأفراد ومراكز صناعة القرار بقصد مختلف المصالح والمناصب التي يطمح إليها هؤلاء، مما كون صورة سلبية عن الزاوية، وبالتالي تراجع الأشعاع الديني الذي كانت تمثله، في مقابل شيوع العلاقات التي باتت تربط الأفراد بالزاوية والمبنية على العلاقات القائمة على المصالح والأغراض الشخصية والضيقة في بعض الأحيان.

إن الأدوار الرسمية التي أوكلت للزاويا من طرف الدولة، جعل منها محل عدم ثقة من طرف الأفراد بفعل عامل الريبة والشك الذي كونه الأفراد إتجاه الزاوية، نتيجة تبوئها مواقع رسمية في هرم السلطة واتخاذ القرار، فقد انتقلت الزاوية من القداسة إلى السياسة، ومن الإنزواء إلى الإنفتاح، هذا التحول الذي دعم الزاوية ودعم موقعها على المستوى المادي والرقى السياسي، أدى في نفس الوقت إلى تراجع على مستوى الدور والوظيفة، وبالتالي تراجع على مستوى التأثير والفاعلية.

5-التأثير الديني على الزاوية:

بقدر ما كانت الوظيفة الدينية تشكل محور وجوه الوظيف الساندة في المجتمع، بقدر ما كانت هذه الوظيفة في حد ذاتها مدخلا مهما لبعض لضرب هذه الوظيفة، من أجل استهداف الزاوية، على اعتبار أن الدين يعتبر من بين أهم عوامل الحراك والتغير الاجتماعي، كما أنه يتحكم بشكل كبير في باقي الأنساق الأخرى، بفضل المكانة التي يشغلها في وجدان وفكر الأفراد، خاصة في المجتمعات العربية والإسلامية، فالظاهرة الدينية تعتبر محل تجاذب بين الكثيرين من أجل بسط السلطة والنفوذ على المجتمع استنادا للدين واستعمالا لتأثير التوجهات الدينية على الأنساق المختلفة داخل المجتمع.

حيث تأثرت الزاوية بحجم هذه النقاشات الدينية المطروحة اليوم على كل المستويات، مما جعلها تتعرض لأشكال من المراجعات والنقد، بل حتى التشكيك والتكذيب في بعض الأحيان، كل ذلك في إطار الصراع الفكري بين الفرق الدينية والمذهبية، التي تحاول كل واحدة منها عرض نفسها على أنها البديل للأمة من حيث المنهج المتبع، مما غذى الصراعات التي وصلت إلى حد إلغاء الآخر وتكفيره.

وتتموقع الزاوية في خضم ذلك الصراع، بل أنها طرف ثابت، خاصة إذا تعلق الأمر بالصراع بين الإسلام الشعبي وكذا الرسمي الذي تزعمه المرجعيات الدينية (الإسلام السلفي)، والتي تحاول باستمرار مجابهة فكر الزاوية وما يرتبط به من تأثير على الأفراد المريدين والأتباع، حيث توصف الزاوية في هذا الإطار بأنها رمز للتقهقر الديني والخروج عن النهج الرياني، حيث توسم بأنها أداة للهيمنة الدينية عن طريق الخرافة والأساطير والمعتقدات

الخاطئة، كما تعتبر كذلك وسيلة لممارسة القهر والخوف النفسي" فيتوسل الإنسان المقهور بأساليب عدة للسيطرة الخرافية على حاضره وإدخال شيء من الطمأنينة إلى نفسه والتوازن في حياته، إنه يتعلق ببعض رموز الخير ويتقرب منها بطرق محددة ويخشى بعض رموز الشر والتهديد الوجودي ويلتمس سبيله إلى تجنب أذاها بممارسات محددة أيضا، أما رموز الخير فهي الأولياء وكراماتهم وأضرحتهم، وأما رموز الشر فهي الجن والعفاريت والشيطان، وأما التقرب من الأولى فيتم من خلال الأدعية والندور والقرايين، وأما تجنب الثانية فيتحقق من خلال السحر والكتابة والتعاويد والرقى⁽¹⁶⁾، وتلعب الزاوية دورا أساسيا في كلا التصورين سواء ما تعلق بالخير والشر، مما جعل دورها الديني تشوبه شائبة الابتداع والخرافة، في ظل بديل جديد طرحه التيارات الدينية الجديدة للفكر الصوفي على وجه التحديد، خاصة في ضوء الانتشار العلمي والديني الذي يوصف بالوعي الاسلامي عن طريق مختلف الفتاوى الدينية وحركة الإعلام التي اشتدت في هذا الاتجاه، في مقابل الغفلة والتراجع الديني الذي تتبناه الزاوية من وجهة نظر هؤلاء، مما أدى إلى صراعات حادة وعنيفة في بعض الأحيان حول الأهلية والأحقية الدينية.

مما أفقد الزاوية كثيرا من حضورها على المستوى الديني، فبعدما كانت تمثل مرجعية الأمة ومصدر تشريعها، باتت اليوم تعاني من أزمة هوية ووجود، ووصل الحد إلى معاناتها من أزمة بقاء في ظل تعقد الظاهرة الدينية وتعدد مشاربها بتعدد الفرق والمذاهب والنحل.

خاتمة:

إن معالجة الفكر المرتبط بالزاوية لا يمكن حصره في مقال علمي أو دراسة واحدة، بل هو صيد علمي ومعرفي لا يمكن لدراسة واحدة أن تحوز كل جوانبه، لكن هذه المحاولة البحثية حاولت أن تقف على بعض جوانب هذه المؤسسة التقليدية، ليس باستظهار أعداد الزاوية وتعداد مناطقها وأعلامها، وليس سبرا في الأغوار التاريخية لهذه البنية التقليدية، بقدر ما هي محاولة للوقوف على بعض مكامن القوة التي عرفتها الزاوية، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها وإغائها تحت طائلة بدائل العصر على مستوى التدين والبديل الذي يروجه الإسلام السلفي.

وفي المقابل لا يمكن كذلك إغفال حالة التراجع والتقهقر التي عرفتها وتعرفها الزاوية، على الأقل بعض الزوايا التي لم يكن مسموحا لها في وقت ليس بالبعيد أن تشوبها شوائب الزمان ممثلة في السياسة والمصلحة ومهادنة الحاكم، نظرا للقوة القداسية التي صنعتها على مر التاريخ، والتي كانت تمثل رأس مالها الوحيد في ظل تكالب السلطة عليها وعلى أدوارها، كما ظهر ذلك في حالة المغرب (الزاوية-المخزن)، (المركز-السيبة)، هذه الحالة التي لا تختلف عن علاقة السياسي بالتدين الشعبي في الجزائر بما أن الأهداف تشترك في الحالتين.

وفي الأخير وفي ظل هذا الصراع المحموم، لا يمكن الجزم بضمور هذه المؤسسة التقليدية وتراجعها من المشهد الاجتماعي والثقافي للمجتمع الجزائري، لأن هذه المؤسسة ساهمت في تشكيل جوانب مهمة من تاريخه على مستوى الوجود والمقاومة وكذا الهوية والانتماء، كما حافظت على أهم الوظائف التي ارتبطت بشكل وثيق

بالزاوية والمتمثلة في تربية الناشئة وتعليمهم وتحفيظهم القرآن الكريم والعلم الشرعي، كما هو الحال في الزوايا الدينية المنتشرة في منطقة توات (أدرار) وزاوية الهامل (بوسعادة) وغيرها، وكلها منابر تبقى مراكز للإشعاع الديني والثقافي، برغم محاولات الاحتواء التي تعددت أساليبها ومضامينها وتعددت أهدافها، لدرجة أنه يصعب فك تفاصيلها وخيوطها.

الإحالات والهوامش :

- 1 - عبد المجيد مزبان: المجتمعات العربية الإسلامية بين الجماعية والقبلية، مجلة الأصاله، العدد 68، 69، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر 1979، ص. 3.
- 2- محمد نجيب بوطالب، سوسيولوجية القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 بيروت 2002 ص55، نقلا عن محمد عاطف غيث، محرر قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1990.
- 3 - نور الدين الزاهي، بركة السلطان، دفاتر وجهة نظر (12)، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2007، ص118 - 123.
- 4 - دانييل هيرفيه - ليجيه - جان بول ويلام، سوسيولوجيا الدين، ترجمة درويش الحلوجي، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 203.
- 5 - طيب جاب الله، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري، مجلة معارف، جامعة البويرة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 14، السنة الثامنة، الجزائر، أكتوبر 2013، ص141.
- 6 - عبد الله العروي، من ديوان السياسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2009، ص 28، 29.
- 7 - منال عبد المنعم السيد جاد الله، أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها - دراسة أنثروبولوجية في مصر والمغرب - أطروحة دكتوراه، قسم الأنثروبولوجية، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1990، ص251.
- 8 - صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، لبنان، 2002، ص19.
- * مَحَاضِرٌ جمع مَحَضْرَةٌ، من المصطلحات المنتشرة أكثر في المناطق الجنوبية، ويعنى بها المدرسة القرآنية، ولها عدة مسميات تختلف باختلاف المناطق، على غرار مصطلح الزاوية الذي يشيع تداوله في المناطق الشمالية، ويطلق عليها في مدينة آفلو مصطلح "العربية" بسكون الراء، لما لهذا المفهوم من دلالات سوسيوأنثروبولوجية ارتبطت أساسا بالمرحلة الاستعمارية ومحاولات التجهيل، من خلال القضاء على الهوية الوطنية ممثلة في اللغة العربية على وجه التحديد، فكان التعليم القرآني خط دفاع عن هذه الثوابت من خلال تفعيل التدريس الديني القرآني، فكان مصطلح "العربية" تعبير عن الفضاء القرآني من جهة ورفض السياسات الاستعمارية التجهيلية من جهة أخرى.
- ** أثير في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات وقبله في ثلاثينات القرن الماضي جدل واسع ونقاش حاد حول النخب المتعلمة، والتي كانت منقسمة بين التكوين الديني التقليدي، والتكوين الرسمي الحديث، وتأثير كل ذلك على الواقع السياسي الذي عاشته الجزائر آنذاك، إضافة إلى بروز صراعات وتيارات ممثلة في أحزاب وهيئات مجتمع مدني في خضم هذا الصراع السياسي والديني، هذا الصراع الذي كان أساسه ومحوره التركيز على التربية والتعليم بالدرجة الأولى.

طالع في هذا الصدد: مقال خالد محمد حول التحولات الاجتماعية والممارسات الدينية، المنشور على موقع مجلة إنسانيات، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، الأنثروبولوجية، والتاريخ، www.crasc-dz-org/article-845-html_ftn1.

- 9 - بن لباد الغالي، الزوايا في الغرب الجزائري، التيجانية والعلوية والقادرية، دراسة أنثروبولوجية، أروحة دكتوراه في الأنثروبولوجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، ص172.
- 10 - مرسيا الياد، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق، 1988، ص8.
- 11 - عبد الغني منديب، الدين والمجتمع - دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، افريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص79.
- 12 - عبد الغني منديب، نفس المرجع ص149.

13 - نور الدين الزاهي، المقدس والمجتمع، أفريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص 84

14 - عبد الغني منديب، مرجع سابق، ص 134.135

* يعتبر الدور السياسي الذي لعبته الزوايا أحد أهم الموضوعات التي أثيرت في إطار العلاقة بين الزاوية والدولة، أو بين القبيلة والدولة، مما جعل الزاوية تتعرض لكثير من المآخذ نظرا لتحول دورها من الاجتماعي التربوي المقدس إلى السياسي الرسمي الموجه، فرغم أن الفكر الصوفي الذي يقوم على أركان أربعة هي المعرفة الدينية والزهد والولاية والمحبة ينتج قيما سياسية متعارضة بعضها إيجابي مثل الانتماء والإنخراط والاستقرار والتسامح والتعاون والتمسك، وقيما سلبية مثل الإكراه والصراع والخضوع والتسلط والانعزال، إلا أن الممارسة الحياتية تسير في اتجاه يرفع من شأن القيم السلبية على حساب القيم الإيجابية، فتاريخ علاقة المتصوفة بالسلطة السياسية يشير إلى أنهم داهنوها أكثر مما عارضوها أو اتخذوا منها موقفا حاسما ضد فسادها وطغيانها، وإذا كان بعض مشايخ الصوفية قد أغضبهم ظلم السلاطين للرعوية، فإن هذا لم يحدث سوى مرات نادرة وكان يتم بشكل فردي ومتقطع، ولم يكن أبدا يمثل سياسة متواصلة تتم عن إصرار على انتزاع الحقوق والتعامل مع الدين بوصفه ثورة على الظلم والتجبر والفساد، أنظر في هذا الصدد: كتاب عمار علي حسن، التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، دار العين، ط1، القاهرة، 2009.

أنظر كذلك: خالد عزب، عرض لكتاب التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر، ضمن دورية "كان" التاريخية الإلكترونية، السنة الثالثة، العدد السابع، مارس 2010، ص 71.

* هذا الاهتمام السياسي جاء على لسان وزير الداخلية "نورالدين بدوي" حين افتتح الملتقى الدولي بإدارة حول مدرسة التصوف في الجزائر وامتداداتها الإفريقية، حين تأكيده على محورية الزاوية في التاريخ الاجتماعي للجزائر ووقوفها خط دفاع عن الثوابت والقيم الوطنية في مراحل حاسمة من تاريخ الجزائر، مما يدل على الإهتمام والاعتراف الرسمي الذي تحظى به الزاوية من قبل الدولة، طالع في هذا الصدد مقال بجريدة الشروق اليومي بعنوان "وزير الداخلية يدافع عن الزوايا والمشايخ"، العدد الصادر بتاريخ 02 - 04 - 2016.

15 - العماري الطيب، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر التحول من الديني إلى الدنيوي ومن القدسي إلى السياسي، مجلة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد 15، جامعة بسكرة، الجزائر، 15 جوان 2014، ص 137، نقلا عن عبد الباقي مفتاح، أضواء على طريقة الرحمانية الخلوافية الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009، ص 12.

16 - مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المهوور، المركز الثقافي العربي، ط9، المغرب، 2005، ص 142.